الفائدة السادسة والثلاثون:

ما وعظ الإنسان بمثل نفسه

الحمد لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ:

ما وعظ الإنسان بمثل نفسه، ولهذا في مواطن كثيرة يذكر الله الإنسان بنفسه، قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات:٢١].

وهنا يقول الله عَزَّوَجَلَّ:{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم:٥٤].

قيل في معنى {مِّن ضَعْفٍ}: من نطفة، وعلقة، ومضغة.

وقيل في معنى ذلك: أن الإنسان يخرج طفلًا، وهذا هو الصحيح، فإن المولود حين يخرج إلى هذه الحياة يخرج ضعيفًا صغيرًا عاجزًا، لا يستطيع أن يُطعم نفسه، أو أن يتحكم في يده، وكلنا كان على هذا الحال.

فلو رأيت الطفل في أيامه الأولى، ما يستطيع أن يصل بيده إلى فيه، يبقى يرمي بها إلى حيث لا تنضبط، ثم يتدرج في النمو حتى يصل إلى كماله وعنفوانه وقوته، وإلا فهو بين ذلك ضعيف، ربما يكون من السنة الأولى إلى الخامسة عشرة وهو في طور الضعف، ثم إذا بلغ لا زال متدرجًا في القوة من فترة خمسة عشرة سنة إلى أربعين سنة، فإذا ما بلغ الأشد، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ} [الأحقاف:١٥].

ذكر علماء الطب: أن التأثر في بدن الإنسان، يبدأ من التاسعة والثلاثين، ولا يعارض هذا القول ظاهر الآية؛ لأن ظاهر الآية دالة على أن الضعف يظهر في الأربعين، {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} [الأحقاف:١٥].

وهذا هو الرجل العاقل الفطن الذي يستدل بشهوره وأعوامه على قرب أجله، وكلما قرب أجله؛ كلما سارع إلى العمل الصالح.

وهذه والله آية، {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً} [الروم:٥٤]، قوة في حركته، قوة في عقله، قوة في بدنه، قوة في جميع شأنه، ولهذا تجد الصغير يقول: ليتني كبيرٌ، وتجد الشيخ الهرم يقول: ليتني شابٌ.

ألا لَيتَ الشّبابَ يَعُودُ يَوْمًا ❁❁ فـأُخبِرَهُ بـمَا فَعَـلَ المَشـيبُ

والناس يتمنون هذا السن، ولهذا كان أهل الجنة شبابًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا**»(١).

ليسوا في طور الطفولة، الذي يحتاج إلى غيره في تأكيله وتشريبه، وغير ذلك من شؤونه، وليس في طور الكهولة والشيخوخة، التي يكون الإنسان قد فقد بعض قواه فيها.

ثم بعد ذلك قال: {ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم:٥٤].

قوله: {ضَعْفًا}، يبدأ في الفتور، وتفتر جوارحه، وإن بقي في وجهه بشاشة في فترة الكهولة، إلا أن النقص قد حصل.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد سألت طبيبًا، وهو من المتخصصين الكبار في طب العيون، حيث دخلت إليه في الرياض، وقلت له: أريد أن أعمل عملية بحيث ما أحتاج نظارة، قال: لا يمكن، إما أن نعمل لك عملية للطول وتحتاج نظارة إلى القِصَر، وإما أن نعمل عملية للقصر وتحتاج نظارة إلى الطول؛ إذا وصل الإنسان إلى هذا السن بعد الأربعين في الغالب أنه يحتاج إلى ذلك، لابد أن يجد ضعفًا في نظره.

وفعلًا في ذلك اليوم تأملت الأطباء الذين هم من الاستشاريين في هذا الطب، كلهم يلبسون نظارات في ذلك المستشفى، وهم من الأطباء في العيون ومن المتخصصين في ذلك؛ فدل ذلك على أن الإنسان مهما كانت وظيفته، أو رتبته، أو مهنته، أو طعامه، أو شرابه، أو بيته، أو مركبه، فلابد أن يمر بهذا الحال، {ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا}، إلا أن الضعف يتفاوت، ضعف الأربعين، غير ضعف الخمسين، غير ضعف الستين.

ويبدأ الضعف في أشده في الغالب في الثلاثة والستين، هكذا يقول العلماء: في الغالب، قد يقع بعض الناس يمتد إلى السبعين، إلى الثمانين مازالت له قوة، لكن غالب الناس إذا وصل الثلاثة والستين يبدأ في الرجفة، ويبدأ في عدم التحكم في نفسه، وربما ضعفت قواه العقلية، وقواه البدنية، إلى غير ذلك.

وقال العلماء في معنى: {وَشَيْبَةً}، لأن الضعف غير الشيبة، قد يظهر في الإنسان الضعف وما زال وجهه نظرًا، ولحيته سوداء، وشعره كذلك، ولكن في الغالب أن في الثلاثة والأربعين يبدأ الشيب في الظهور في الإنسان، وقد يظهر قبل ذلك، وقد يظهر بعد ذلك.

ثم قال: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}، عليم بأحوال العباد، وقادر على ما يشاء.

فوالله إن في هذه الآية موعظة بليغة قد مر عليها أغلبنا، وسيمر عليها من بعدنا.

قوله: {واللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْف}، أيُّ إنسان.

وقوله: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً}، من الرجال والنساء.

وقوله: {ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَة}، تتغير حتى الخلقة، والنظارة بدل إن كان الملمس ناعمًا والوجه نضرًا يصير متعرجًا متموجًا متشققًا، وبدل إن كانت العظام قوية تصير رقيقة، وبدل إن كان يمشي قائمًا منتصبًا إحدودب ظهره، وبدل إن كان يمشي بعين مبصرة يبدأ يتلمس النظارات وغير ذلك، وبدل السمع الذي يسمع به الكلام البعيد يبدأ يحتاج إلى سماعات.

فالله عَزَّوَجَلَّ قد وعظنا في أنفسنا، فما علينا ألا أن ننظر فيها، ونتأمل عجيب صنعة الله في هذا الإنسان؛ حتى نعرف أننا في سيرٍ في ليلنا ونهارنا.

تُمُـرُّ بنـا الأيَـامُ تَـتْرَى وإنَّـمَا ❁❁❁ نُسَاقُ إلى الآجالِ والعَيْنُ تَنْظُرُ

فلا عائدٌ ذاكَ الشَبابُ الذي مَضَى ❁❁❁ ولا زَائلٌ هذا المشيبُ المُكَدّرُ

* فنعوذ بالله مِنَ الهَرَمِ[١]، ونعوذ بالله من سُوءِ الْكِبَرِ[٢]، ونعوذ بالله أن نُرَدُ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ[٣]، هكذا كان من الدعاء المأثور عن النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري(٦٣٧١)، ومسلم (٢٧٠٦)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٣)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري(٢٨٢٢)، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.